

الفكر الجزائري المعاصر - أبو عمران الشيخ نموذجاً -

أولاً: من هو أبو عمران الشيخ ؟

ولد أبو عمران الشيخ سنة 1924 بقرية مكثر بولاية البيض ونشأ في أسرة فلاحية متوسطة محبة للوطن وملتزمة بانتمائها العربي وقيمها الإسلامية. بدأ حفظ القرآن بالطريقة التقليدية في مسقط رأسه، ثم دخل المدرسة الابتدائية الفرنسية بالبيض في سنة 1934، ورغم تأخر سن التحاقه بالمدرسة الرسمية فقد تمكن بفضل ذكائه وقوة إرادته من اختصار سنوات الدراسة الابتدائية والتفوق فيها، واصل دراسته الثانوية بوهران عاصمة الغرب الجزائري التي انتقل إليها سنة 1941 ودرس في ثانوية لاموريسيار إلى أن حصل على شهادة البكالوريا شعبة الآداب سنة 1944. ثم تقدم إلى مسابقة مدرسة المعلمين ببوزريعة وتخرج منها سنة 1946، وحصل من جامعة الجزائر على ليسانس فلسفة سنة 1948، وليسانس اللغة والأدب العربي سنة 1954، ناقش سنة 1974 رسالة الدكتوراه في الفلسفة بجامعة السوربون.

بدأ حياته المهنية سنة 1946 مدرساً في البيض، ثم عُيِّنَ بالجزائر سنة 1952 للتعليم بمدرسة شارع رومب فالي (لوني أرزقي حالياً) وعندما استقرَّ بالعاصمة سنة 1950 أصبح قائداً وطنياً للكشافة مكلفاً بالجولة ومحزراً بمجلة الكشافة التي كان يكتب افتتاحياتها. وفي سنة 1956 سافر إلى باريس ومكث بها سنة كاملة للتحضير للتفتيش، فتخرج مفتشاً ومارس التفتيش بمدينة مستغانم ثم بوهران إلى غاية بداية 1962، ثم توجه إلى تلمسان بأمر من تنظيم الثورة بعد أن تعرض مكتبه في وهران إلى التفجير من قبل منظمة الجيش السري الإرهابية (OAS).

بعد استرجاع الاستقلال، عُيِّنَ مديراً للتربية بمدينة الأصنام (الشلف حالياً) وقام بتحضير الدخول المدرسي الأول، وفي السنة نفسها التحق بديوان وزير التربية (1962-1964) وفي 1965 أسندت له وزارة التربية مهمة لدى وزارة التربية التونسية لمدة سنة كاملة. في الدخول المدرسي 1965-1966، ترك الإدارة وأصبح يدرّس الفلسفة بكلية الأدب والعلوم الإنسانية بجامعة الجزائر، و يرجع الفضل في تعريب معهد الفلسفة سنة 1966 للدكتور الشيخ أبو عمران والدكتور عبد المجيد مزيان رغم أنهما كان من المتقنين للغة

الفرنسية، بقي أبو عمران الشيخ أستاذا لمادة الفلسفة إلى غاية 2001. وخلال هذه الفترة التي دامت 37 سنة، تخرّج على يديه مئات الطلبة، وأشرف على عشرات بحوث الدكتوراه.

تقلد مناصب سامية منها: مستشار وطني للثقافة (1990)، ثمّ وزير للثقافة والاتصال سنة (1991)، كما كان رئيساً لاتحاد الكتاب الجزائريين (1995)، ثمّ رئيساً للمجلس العلمي لمؤسسة الأمير عبد القادر (1996-1999) ونائبا لرئيسها (1999-2002). ترأس الفقيه المجلس الإسلامي الأعلى لما يقارب 15 سنة من 31 ماي 2001 إلى غاية وفاته.

انتقل المفكر أبو عمران الشيخ إلى جوار ربه في 12 ماي 2016 م عن عمر ناهز 92، ودفن في جنازة مهيبة بمقبرة سيدي فرج بالعاصمة، وترك تراثا فكريا ثريا وقيما.

ثانيا: مؤلفات أبو عمران الشيخ

بالإضافة إلى مئات الدراسات والمقالات المنشورة في الصحف والمجلات، ترك الزّاحل عددا من الأعمال الفكرية والثقافية، منها:

. مسألة الحرية الإنسانية في الفكر الإسلامي (1978)

. ابن رشد (1978)

. الفكر الإسلامي نظرة شاملة مع لويس غاردي (1984).

. الموسوعة الفلسفية (1989)

. معجم مشاهير المغاربة (عمل جماعي 1995).

. الكشافة الإسلامية الجزائرية (عمل جماعي 1999) باللغتين.

. الأمير عبد القادر المقاوم والإنساني (2001)

. الجزائر المستعمرة عبر النّصوص، مع الأستاذ جيجلي.

. قضايا في التاريخ والثقافة.

ثالثاً: فكر أبو عمران الشيخ

قضى أبو عمران الشيخ جُلَّ عمره المديد في العطاء الفكري ونشر العلم والمعرفة، بين تلاميذ المدارس وطلاب الجامعات الجزائرية، ولذلك فإنَّ من بين آخر التكريمات الكثيرة التي حظي بها كان تكريم قدامى تلاميذ المؤسسة التعليمية الكائنة في حي باب الوادي بمنحدر «لوني ارزقي» باعتباره كان مدرسا فيها ما بين 1950 و 1956 وقد اجمع، في تلك المناسبة، تلامذة الشيخ بو عمران القداماء الذين أصبح الكثير منهم إطارات علمية ومسؤولين في الدولة على ابراز القيم المهنية والإنسانية التي تحلى بها أستاذهم السابق أبو عمران الشيخ الذي كان بالنسبة لهم مدرسا وقُدوة وأبا ينصحهم ويدعمهم.

كان الراحل الدكتور أبو عمران الشيخ موسوعة فكرية يتميز برزانة المفكر ودمائة خلق العالم الزاهد مع صرامة لا تقبل التنازل عن الحق، دافع عن الإسلام الوسطي المعتدل بالحكمة والحجة العلمية وشارك في العشرات من الندوات والملتقيات العالمية المتخصصة في الحوار بين الحضارات والتسامح بين الأديان، كان من الداعين إلى إصدار قرار أممي يمنع انتهاك حرمة الأديان والإساءة إلى المقدسات، وظلَّ يدعو النخب السياسية والفكرية والإعلامية في الغرب إلى فتح باب التفاهم والتضامن والتعايش الحقيقي بين الإسلام والغرب بالشروع في مراجعة الدول الأوروبية لمناهجها الدراسية وحذف كلِّ ما قد يسيء للأديان وللديانة الإسلامية وسن قوانين تعاقب كلَّ من يتهمج أو ينتقص من قدسية الأديان الثلاثة مهما كانت اختلافاتها لأنَّ القاسم المشترك بينها هو الوصايا العشر المعروفة عالميا.

— مسألة الحرية في فكر أبو عمران الشيخ: كشف أبو عمران الشيخ في كتابه: «مسألة الحرية في الفكر الإسلامي» الصدام بين الفلسفة المعتزلية وفلسفة الجبريين، في مسألة مركزية نشبت في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي)، ذلك حين طرحت قضية فحواها: ما علاقة القدرة الإلهية بحرية البشر؟ وماهي علاقة الإنسان بأفعاله؟ إذ وجد المعتزلة أنفسهم في حضور أزمة في الوعي الجماعاتي.

وذلك إثر التباينات التي ظهرت بين مناصري النظام السياسي آنذاك وبين خصومه. فلم تتوقَّف المناظرات أبداً، وسرعان ما تحوّلت إلى مواقف مذهبية صارمة، إلى هذا الحد أو ذاك. إذ تمثَّلت المسألة الأساسية في معرفة ما إن كان الإنسان حرَّ التصرُّف ينبغي حينذاك اعتباره مكلفاً . أم أنَّ الله وحده يتمتع بالقدرة.

وفي هذه الحالة تصبح حرية الإنسان وهماً. ويلفت المؤلف إلى أنه من يومها وإلى الوقت الحالي، لا تزال راهنية الفكر المعتزلي تقوم بتجديد الثقافة العربية والإسلامية.

إنّها طرحت مسألة الحرية باكراً جداً على الوعي الإسلامي. كما أن الحل المعتزلي أثار عميقاً في كل تيارات الفكر في هذه الثقافة، سواءً تعلّق الأمر بالمجادلة العقيدية (الكلام)، أم بالفلسفة ذات الاستلهام الهيليني (الفلسفة)، أم بالتصوّف: الصراطي أو غير الصراطي.

ويوضح أبو عمران الشيخ أنه اتخذت كل مدرسة موقفاً من مذهب المعتزلة ومن المنهج المطبق، وطوال قرون تغذّت النقاشات والمناظرات من موضوعات ذلك المذهب، سواءً لإقراره أم رفضه. وتجلّى تجدد للاعتزال في مطلع القرن التاسع عشر إذ استلهمه المجددون من أمثال: جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد إقبال، لصياغة مذهبهم عن الحرية الإنسانية، واستثارة حركة تحويل المجتمع الإنساني، بهدف إدماجه في تيار الحضارة العالمية، بعد قرون من الانحطاط.

ويرى أبو عمران الشيخ أنّ جميع المصادر التي لجأ إليها في بحثه، تؤكّد أنّ «معبد الجهني» هو أوّل مُنظرٍ أبدى رد فعل منهجياً على هذه القدرية السياسية الدينية، التي أكّدها الأمويون وحلفاؤهم. إذ شجب الجهني بحدة استبداد الحكم القائم في دمشق وفكرة استناده إلى إرادة الله. ما دفع الخليفة عبد الملك بن مروان إلى اعتقال معبد وإعدامه في دمشق عام 80 هـ 699 م.

كما رفض المعتزلة حسب أبو عمران الشيخ استخدام العنف، حيث ظلوا على ارتباطهم القوي بآل النبي (ص). فهم كما يُعرف عنهم بأنهم (شيعة) معتدلون. واصطدم المعتزلة مع المذهب الجبري ومع المدرسة الحنبلية، ومع المدرسة الأشعرية، ومع المدرسة الصوفية التي كان على رأسها المفكر الصوفي (المحاسبي).

ويشير أبو عمران الشيخ إلى أنّ الجبريين وهم أنداد المعتزلة، يخلطون بين الخلق والخالق، بهدف تعزيز أطروحتهم التي تنص على عجز الإنسان عن الفعل، في ما تتجنّب مدرسة المعتزلة بعناية مثل هذا الخلط.

ويخلص أبو عمران الشيخ، إلى أنّ المعتزلة أوجدوا علم الكلام. وكانت غايتهم أن يستخدموا العقل في الدفاع عن ما جاء به النقل. ثمّ ابتعدوا عن تلك الغاية، وصاروا يشتغلون في التوفيق بين النقل والعقل، على اعتبار أنّهما منفقان متساويان في الحقيقة. إذ يعتبر بأنّ العقلانية المعتزلية تبقى خاضعة للوحي، وأنّ التأويل لا يستطيع أن يناقض النصّ القرآني. ويركّز معظم شيوخ المعتزلة مثل القاضي عبد الجبار، على أنّ العقل وحده لا يستطيع تفسير كل شيء وإدارة كل شيء.

كما يؤكد أبو عمران الشيخ منح مذهب المعتزلة مكانة كبيرة للعقل والجدل. وأكد على المقتضيات الأساسية للعدل والحرية، عبر منهجيته وحسّه البحثي. وسمح بجهد ذهني مستدام، يتأسس على تفاؤل معقلن وعلى ضرورة وجود فعل متماسك. إذ انفتح الاعتزال على الثقافات الأجنبية في زمنه، وحرص على الحفاظ على أصالته عبر تطوير إجمال يتجاوز التباينات العميقة في أنظمة العصر.

ويوضح أبو عمران الشيخ أن فلسفة الاعتزال تتعارض بصدد الفعل، تعارضاً منهجياً، مع التصوّف والتوكّل، لا بل مع القدرية الكسولة التي تتجم عنهما في غالب الأحيان. لأنّ هذا التوكّل مناقض لعقيدة الحرية التي تقتضي القدرة على الفعل والجهد الشخصي.